

الوحدات البنائية والفنية لفلسفء بازيلكا جستنيان الأثرية

د. إيناس سالم الناطوح

أستاذ مساعد، قسم الفنون التشكيلية، الأكاديمية الليبية

المقدمة

تنوعت الفنون الجميلة منها والتطبيقية وعرفت منذ أن خلق الله تعالى الإنسان، وأضفت على حياته المنفعة من جهة وكأنها قد ارتبطت بالناحية الوظيفية منذ أن عرفها الإنسان ومارسها، والبهجة والسرور من جهة أخرى وكأنها قد ارتبطت بالجانب الجمالي.

ومن خلال استمرار ممارسة الإنسان لهذه الفنون تكونت لديه أساليب متنوعة التعبير تمثلت في تعدد أنماط هذا التعبير باستخدام الخامات المختلفة وعناصر التكوين والأدوات وطرائق التنفيذ، وبعض القيم الجمالية التي تطورت بتطور حياة الإنسان وأفكاره ومعتقداته بشتى وسائل التعبير الفني والتي أصبحت شاهداً على أحداث ومتغيرات التاريخ.

ولعل من أبرز ما ميز الجانب الجمالي في هذه الفنون هو استخدام الفسيفساء التي شكلت جزءاً مهماً من الفنون الزخرفية في تاريخ الفن منذ أن بدأ الإنسان في اللجوء إلى تزيين الأشياء لأغراض تتعلق بالجانب الوظيفي ومعتقداته الروحية فضلاً عن الجانب الجمالي الذي تكون من خلال النقوش.

فقد أصبح فن الفسيفساء أكثر وضوحاً سواء من ناحية الأساليب الرمزية المتمثلة في الزخارف النباتية، والطيور والحيوانات، بالإضافة إلى مشاهد من الأعمال والحرف، كالصيد والزراعة وغيرها من اللوحات التي وجدت في حضارات مناطق كسوريا، وتونس، وليبيا، والمغرب.

وتعد ليبيا من أغنى مناطق شمال إفريقيا، التي قامت على أرضها حضارات قديمة بعد أن استعمرت غالبية سواحلها واستوطنتها على التوالي؛ بداية من الإغريق والرومان والبيزنطيين⁽¹⁾.

إلى جانب امتلاكها أرضيات وجداريات الفسيفساء التي جمعت فيها مدرسة فنية تمتاز بالتنوع والدقة والذوق الرفيع، حيث وجد تنوع هائلاً في موضوعات التصوير سواء الموجودة في

1 (محمد عيسى، الحياة العامة في المدن الليبية القديمة أثناء الاستعمار الروماني من خلال بعض نماذج

الفسيفساء، مجلة أثار العرب، العدد السابع والثامن، 1995 م .

المواقع الأثرية بكل من شحات، طلميثة، لبدة صبراته، زليطن والمتاحف الملحقة بها، أو تلك الموجودة بمتحف السرايا الحمراء بطرابلس.

فقد أسفرت الحفريات وأعمال التنقيب بمدينة صبراته الأثرية، إحدى المواقع المدرجة على لائحة التراث العالمي، عن اكتشاف كنوز تاريخية لا تمثل بثمن من الأعمال الفنية التي تعبر عن شتى أنواع الفنون السائدة في حقب تاريخية متوالية، بما في ذلك أنواع اللوحات الجدارية لفسيفساء المتواجدة في "بازيليكاستينيان" الرومانية⁽¹⁾.

كما أجريت عدد من البحوث والدراسات التي كان موضوع الزخرفة والبلاطات محتوى لها إلا إن هذه الدراسات اتجهت معظمها إلى دراستها من جانبها الوصفي والشكلي في حين ذهبت دراسات أخرى إلى إبرازها من الناحية الأثرية المرتبطة بالمنهج التاريخي، وبقي الجانب الجمالي الفني رغم أهميته دونما اهتمام.

لذلك ارتكزت الباحثة على إبراز التعبيرات الفنية الغنية بجماليات التكوين للوحدات الفسيفسائية في "بازيليكاستينيان"، ودراسة مواضيعها من حيث الرؤية والأسلوب والمعالجة الفنية، إلى جانب هندسة وبناء وحداتها الفسيفسائية وبناء اللوحات الجدارية استلهاما للقيم والمفردات الجمالية والإدراك الشكلي فيها.

الكلمات المفتاحية / التعبيرات الفنية، الوحدات البنائية، الفسيفساء، بازيليكاستينيان.

إشكالية البحث

ليبيا أرض غنية بالآثار والوحدات الفنية وبثراء اللوحات الفسيفسائية المتعددة الألوان والتصاميم والموضوعات، كذلك الرسومات الجدارية الموجودة داخل متحف آثار صبراته، التي تعتبر لمصدر ألهم للفنان بشكل جميل، ونظرا لقصور الدراسات الفنية للمكونات الفسيفسائية فيها وتركيزها على الجانب التاريخي مع إهمال الجانب الجمالي لهذا الفن استوجب الوقوف على دراسة الجانب الجمالي في تكوينها.

وعليه تكمن مشكلة الدراسة في طرح التساؤلات التالية:

(1) محمد عيسى، الحياة العامة في المدن الليبية القديمة أثناء الاستعمار الروماني من خلال بعض نماذج الفسيفساء، مرجع سابق.

_ ما إمكانية استخلاص الرؤى الجمالية في تعبيرات الوحدات الفسيفسائية الموجودة في "بازيليكاستنانيا" الأثرية؟

_ ما السمات والخصائص التي تتميز بها الوحدات الفسيفسائية داخل متحف صبراته الكلاسيكي "بازيليكاستنانيا"؟

أهداف البحث:

_ استخلاص جماليات الرؤى البنائية والتعبيرية للوحدات الفسيفسائية في بازيليكاستنانيا الأثرية.

_ إبراز أهم المميزات والخصائص باللوحات التعبيرية والزخرفية والتعريف بها.

أهمية البحث:

_ الكشف عن جماليات التكوين الفني للفسيقساء المنفذة في المعلم التراثي الحضاري بمدينة صبراته، والتعرف من خلالها على النواحي التاريخية والتقنية وتطورها.

_ تقديم رؤية تحليلية جمالية للرسوم الجدارية للوحدات الزخرفية لفسيقسائي بازيليكاستنانيا الأثرية.

حدود البحث:

تحدد في عرض الوحدات الفسيفسائية بأرضية وجوانب "بازيليكاستنانيا" الموجود دخل متحف صبراته، بهدف الكشف عن جماليات التكوين فيها، ووصف وتحليل البلاطات الفنية واستخلاص القيم الفنية لوحدها الفسيفسائية لما اتصفت به من جماليات في التكوين والأسلوب والتعبير.

منهجية البحث:

اتبعت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي والتاريخي، مستندة على نماذج الدراسة في وصف وتحليل البلاطات الفنية الموجودة في "بازيليكاستنانيا" بمتحف صبراته واستخلاص القيم الفنية لوحدها الفسيفسائية لما اتصفت به من جماليات في التكوين والأسلوب والتعبير.

أولاً: بنائية الوحدات الفسيفسائية في ليبيا

يعتبر فن الفسيفساء رمز من رموز الحضارة، وفن موروث عن فنون الحضارات القديمة لمنطقة البحر المتوسط وبلاد الإغريق والرومان، ورغم إن العديد من الحضارات القديمة قد عرفت أنواع ومعالجات مختلفة للفسيفساء لأغراض طقوسيه أو زخرفية، فقد انتشرت الفسيفساء في الحضارة اليونانية الرومانية وزاد انتشارها وارتباطها بالثقافة والحضارة البيزنطية؛ حيث كانت أداة تعبير أساسية، واتخذها فنانون هذا العصر الوسيلة الهامة للتعبير عن المعتقدات الجديدة المناهضة للديانات والمعتقدات الوثنية القديمة⁽¹⁾.

يعد فن الفسيفساء من تقنيات التصوير الجداري التي شهدا تطور كبير على مر العصور من حيث اختلاف وتعدد تقنيات التنفيذ واستخدام خاماتها المختلفة نتيجة للطبيعة الجيولوجية ومواردها المتعددة من توفر الزلط والأحجار والرخام..، ويعتمد فن الفسيفساء على تجميع مكعبات من القطع الصغيرة منها بجانب بعضها البعض على هيئة أشكال هندسية أو وحدات نباتية..، المتميزة بطابعها الجمالي إلى الجانب الوظيفي النفعي.

ومن هذه المكعبات يتم رصف أرضيات صغيرة أو كبيرة ذات مناظر ومواضيع مختلفة لبعض من الأساطير الخرافية المقتبسة من العقائد الدينية القديمة، عربية أو إغريقية أو رومانية⁽²⁾.

أما الشخصيات فتركزت على الصور التخيلية للآلهة أو الملوك والأباطرة والأبطال والقادة والشخصيات المرموقة والحكماء والنساء المرموقات في المجتمع، كما تمثل من بين الشخصيات الآدمية المغنين والعازفين والراقصات والفاتنات، ومن ثم تمثلت في السيد المسيح ورجال الدين من الرهبان والقساوسة والمؤمنين بالدين المسيحي وأتباعهم في العصر الذي أطلقت عليه مؤخرًا تسمية العصر البيزنطي⁽³⁾.

فالأشكال الهندسية فيها تمثلت جميعها في أنواع الفسيفساء، وتوظيفها على جميع مراحل الحقب التاريخية، على شكل تزييني أو بمظهر تزييني مكمل للوحات، ومنها المربعات والمكعبات والمثلثات والمضلعات وكذلك المنحنيات والمستقيمات والإطارات.

(1) أنور أبو زعينين، فن الفسيفساء في ليبيا، قصائد من حجر، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، 2006، ص 14.
 (2) محمد عيسى، الحياة العامة في المدن الليبية القديمة أثناء الاستعمار الروماني لبعض نماذج الفسيفساء، مرجع سابق، ص 99.

(3) محمد عيسى، الحياة العامة في المدن الليبية القديمة، المرجع السابق، ص 99_100

وجميع هذه الإبداعات جاءت عن طريق تنسيق المكعبات ذات الألوان المختلفة في الأحجام والألوان لتخرج في غاية الروعة في تمثيل تكويناتها الفسيفسائية بتعبيرية منمقة، ولهذا فقد اختار الفنانون الألوان المبهرة وقد تمازجت مع باقي الألوان بحسب التصاميم المطلوبة، ونلاحظ انه من بين الألوان التي سادت في الاستعمال الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأزرق والبني والبرتقالي، واندماجها في كثير من الحالات بمظهر متناسق يضيفي على اللوحات أثراء في التناغم والإتقان.

حيث بدء أول ظهور للفسيفساء في ليبيا أثناء الوجود الإغريقي الذي بدء 631 ق م وبلغ فن الفسيفساء ذروته في الدقة والإتقان في القرنين الأول والثاني الميلاديين خاصة في تصوير الأشخاص، ثم تدهور في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، وهو عصر الاضطرابات الإمبراطورية والدينية بعد موت "الاسكندر سويروس" عام 235 م، على إن فسيفساء القرن الثالث الميلادي اتسمت بكونها أكثر بريقا ووضوحا وقل دقة من سالفها.

أما في العصر المسيحي فقد عرفت الفسيفساء بالدقة والميل إلى الزخارف النباتية (خاصة الكروم) التي تشير إلى نعيم الجنة، وبعض الرموز المسيحية كالحمام والطاووس، وبعض التصورات المستوحاة من العهد الجديد⁽¹⁾.

عاد فن الفسيفساء إلى أهميته بالاستقرار السياسي في العصر البيزنطي، ولعل أهم اكتشاف يعود إلى تلك الفترة يتمثل في الوحدات الفسيفسائية التي اكتشفت في ورسومات جداريه وأرضيات تغطي الرواق الأوسط والأروقة الجانبية في "بازيليكاستينان" 527_565 م، التي اشتهرت بفسيفسائها والتي عثر عليها بمدينة صبراته وهي معروضة حاليا بمتحف صبراته الأثري⁽²⁾.

حيث زينت معظم الدياميس الموجودة برسومات جميلة تمثل موضوعات متأثرة بالفن الكلاسيكي (الإغريقي والروماني)، فقد صورت فروع وعناقيد العنب وصور الحمام والأسماك، ومن بين الرموز التي ظهرت في الفنون المسيحية صورة اليمامة المتمثلة للروح، وطائر "الفونيكس" الخرافي الذي عاش خمسمائة عام، وبعد أن احرق نفسه عادت الحياة إلى رماده،

(1) محمود عبد العزيز النمسي، وآخرون، دليل متحف السراي الحمراء بطرابلس، الإدارة العامة للبحوث والمحفوظات التاريخية بمصلحة الآثار، 1977 م، ص 139.

(2) محمود عبد العزيز النمسي، مرجع سابق، ص 141.

ولهذا كان رمز للخلود، كما تعد سعف النخيل رمزا للنصر وغصن الزيتون رمزا للسلام والسمة رمز للسيد المسيح⁽¹⁾.

فقد تميزت منطقة شمال أفريقيا بشكل عام بموضوعات الفسيفساء المتعددة والمتنوعة وعلى وجه الخصوص الفسيفساء الليبية ذات الموضوعات والأفكار النادرة، خاصة الموجودة بفيلا " دار بوك عميره " والتي ترجع إلى القرن الثاني الميلادي، ودار فيلا سيلين والتي ترجع إلى القرنين الثاني والثالث الميلادي.

ويبلغ فن الفسيفساء أوجه حين استخدم للتعبير الديني في الفن البيزنطي وأصبح من أهم الفنون المكتملة للعمارة في الكنائس، على سبيل المثال كنيسة "أيا صوفيا" في القسطنطينية، واللوحتين الشهيرتين في كنيسة "سان فيتال" في رافينا، وكنيسة "سان مارك" بالبندقية، حتى قل استخدامها في تزيين الجدران في عصر النهضة؛ بسبب الميل لاستخدام التصوير الزيتي.

إلى أن عادت الفسيفساء إلى سابق انتشارها، مع انتشار ورش متخصصة في القرنين الثامن والتاسع عشر بالإضافة إلى التطور التكنولوجي في العصور الحديثة وما استجد من أساليب في التنفيذ أو الخامات المتنوعة طبقا لرؤية فاني الفسيفساء⁽²⁾.

ومن أهم الخصائص الفنية للوحدات الفسيفسائية المنتشرة في هذه المرحلة نستخلصها في التالي:

- _ ظهور براعة الفنان في استعمال التدرج في الألوان.
- _ وضوح التبادل في الحركة بين أجزاء عناصر اللوحة، وبلوغ التوافق المتقن بين اللون والضوء.
- _ تفعيل الحركات من خلال توظيف تراكيب ذات حدة حركية ونشاط ديناميكي فعال.
- _ تم أغناء اللوحات بالتعبير ألتريني والمتجددة، بإبراز ووضوح الذوق المتجدد خاصة في توظيف النباتات المخضرة، وإبراز العناصر الهندسية الأصيلة.

(1) معالم من الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا Historylibyawordpress.com

(2) أنور أبو زعينين، فن الفسيفساء في ليبيا، مرجع سابق، ص 12_17.

ومن الواضح تعدد الرموز المعتمدة في استعمالها وتداولها، والذي لم يقتصر على منطقة أو إقليم جغرافي معين وإنما شمل جميع أراضي الإمبراطورية بقسميها الشرقي والغربي⁽¹⁾، فبالرغم من تعددها نبين أهمها على الشكل التالي:

1. اليمامة ترمز إلى الروح.
2. طائر العنقاء "الفونيكس" ورمزيته في الخلود.
3. طائر الحمام ظهر في جميع الفنون ويرمز في المسيحية إلى البساطة والنقاوة والتواضع والسلام، والروح البشرية وقدسيته عند الإنسان.
4. سعف النخيل يرمز للنصر.
5. غصن الزيتون ويرمز إلى السلام.
6. السمكة وترمز إلى السيد المسيح لان اسمها اليوناني يتكون من حروف اسمه.
7. الطاووس ويرمز منذ القدم إلى الخلود⁽²⁾.

قد أفرزت صناعة الفسيفساء أنواع متعددة منها في الشكل والمضمون بوجودها في مختلف المتاحف والمواقع الأثرية، بعضها نقل من موقعه إلى المتاحف للترميم والصيانة والعرض فيها خوفاً من تلفها، وتعرضها للسرقة والتخريب، كما الواقع في "كنيسة جستينيان" موضوع هذه الدراسة، وحفظها وعزلها عن العوامل الجوية بمتحف صبراته، حيث تنطوي جميعها ضمن ثلاث أنواع من تقنيات الفسيفساء الأكثر انتشاراً في ليبيا وهي كالآتي⁽³⁾:

النوع الأول ويعرف باسم اوبوس تيسيلاتوم :

وجدت نماذج من هذا النوع في كل من لبدة وصبراته، حيث تم الاستغناء عن الحصى، واستخدمت الأحجار كبديل، بالإضافة إلى قطع الزجاج، يتم صنع هذا الصنف على شكل قطعة كاملة من حبيبات صغيرة ترتب بأشكال منتظمة مربعة الشكل بسمك 1-2 سم، في خطوط

(1) محمد عيسى، الحياة العامة في المدن الليبية القديمة، مرجع سابق، ص 99_111.

(2) محمد عيسى، معالم من الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا منذ بداية القرن الرابع وحتى منتصف القرن السادس الميلادي، مجلة آثار العرب، العدد السادس، 1993، ص 104_114.

(3) محمود عبد العزيز النمسي، وآخرون، مرجع سابق، ص 141_143.

مستقيمة أو منحنية، طبقا لوحدة التصميم، مع تنوع والأشكال سواء كانت أدمية أم هندسية أو نباتية، بحيث تكون الصورة فيها ذات موضوع واحد، وتزين حواف اللوحة زخارف في تألق لوني.

النوع الثاني ويعرف باسم أوبوس سيكتلي :

يستخدم هذا الأسلوب في الأرضيات التي يتم تنفيذها بشرائح من الرخام على هيئة إشكال هندسية متنوعة، وبأحجام والألوان مختلفة ونتيجة استخدام الصخور البركانية والمتحولة، كان له الأثر في مقاومة العوامل الجوية وصمودها لأزمنة طويلة، ويرجع أول نموذج تم بهذه التقنية إلى القرن الثاني ق. م في إيطاليا.

وجود نماذج من هذا الأسلوب في أرضية لوحة "الفصول الأربعة" في دار "بوك عميره" متمثلة بقطع من الرخام المتعدد الألوان محفوفة بإطار من صفائر مجدولة تضيء على اللوحة جمال ورونق.

النوع الثالث ويعرف باسم أوبوس فيرميكولاتوم :

تصنع اللوحة فيها بأكملها من قطع الفسيفساء الصغيرة بحيث يتم رسم الصورة أو الشكل المطلوب على الأرض أولاً، ثم تقسم من الداخل بإطارات من الفسيفساء الملون على شكل لوحات فنية بحيث تشمل كل واحدة منها موضوع واحد لأحد المواضيع والمناظر الطبيعية، يقطع متناهية الصغر تصل إلى حوالي (1_4 ملليمتر)، ومن أشهر الأرضيات في ليبيا أرضية (اورفيوس) التي عثر عليها بإحدى الدارات الرومانية بالقرب من مدينة لبة .

حيث إن الأسلوب السائد في تنفيذ الفسيفساء في العصور اليونانية والرومانية هو الأسلوب المباشر، فيما عدا الأجزاء التي تحوي موضوعات وتكوينات دقيقة، يتم تنفيذها في ورش خاصة بالفسيفساء وتسمى امليما"، وقد تم الإشارة إلى إن هذه التقنية كانت معروفة ومنتشرة في ليبيا أكثر من أي منطقة أخرى بشمال إفريقيا.

كما وجد في كل من المواقع الأثرية بدار فيلا سيلين، وشمال المسرح صبراته أسلوب واحد لتأسيس الأرضية لوضع مثل هذه إل"امليما"، مع اختلاف استخدم قطع كبيرة الحجم من الأحجار الملونة والرخام ولكن بسمك ارفع⁽¹⁾.

(1) محمود عبد العزيز النمى، وآخرون، مرجع سابق، ص 141 .

ثانيا: الموقع الأثري "بازيليكاستنيان" بمتحف صبراته الكلاسيكي

أمام الكم الهائل من المكتشفات الأثرية، التي كانت حفظها داخل أطار مبنى بمواصفات خاصة، يوفر سبل حماية وحفظ لتلك الكنوز الفنية والوثائق التاريخية الهامة من الضروريات، كلف المهندس المعماري الايطالي "فينشي فوري" في بنائه عام 1930م، وتم الانتهاء منه في عام 1934، ليفتح باسم المتحف الكلاسيكي، أو المتحف الروماني، شكل (1)، كما يطلق عليه في بعض النشرات السياحية⁽¹⁾.



شكل (1) المتحف الروماني المصدر: <https://www.temehu>

الوصف المعماري:

عبارة عن تصميم مربع الشكل وبفناء داخلي يتوسطه ثلاثة أجنحة "صالات للعرض" كما موضح بشكل (2)، فيما يطل الفناء الخارجي على مدخل مدينة صبراته الأثرية .

* الاميليا: عبارة عن لوحة مستقلة يتم وضعها في المكان المخصص لها طبقا لتصميم الحجر، وهي أما أن تكون لوحة أو لوحات رئيسية داخلية بمقاسات تصل إلى (50سم) لكل مربع.

1 (وزارة السياحة والصناعات التقليدية- ليبيا



شكل (2) المخطط المعماري لمبنى متحف صبراتة الكلاسيكي⁽¹⁾

افتتح متحف صبراتة الكلاسيكي " الروماني" عام 1936م، ويعود تاريخ الموجودات به ما بين القرن السادس ق م، والسادس الميلادي، وهي مسجلة على قائمة اليونسكو للتراث العالمي وتزخر بعدد من المعالم الأثرية، وقد تم إغلاق المتحف أثناء الحرب العالمية الثانية وأعيد افتتاحه عام 1966.

الوصف التاريخي:

يتكون المتحف من ثلاث صالات للعرض: الصالة الأولى "صالة النحت" وتضم عدد من ألواح الفسيفساء التي تم العثور عليها في معبد "ليثر باتر" في صبراته، ولوحات جداريه من الفريسكو، إضافة إلى حمامات البحر ورؤوس لتمثالين بينها رأس الإله الروماني جوبيتير⁽²⁾.

أما الصالة الثانية تسمى بصالة كنيسة الإمبراطور جستينيان تتضمن مجموعة من المصابيح والأواني الفخارية، وأرضيات مختلفة من فسيفساء التي كانت موجودة في كنيسة الإمبراطور جستينيان.

بينما تضم الصالة الثالثة عدد من القطع المختلفة الاستعمالات والأواني والمصابيح من الرخام والفخار والعاج تم العثور عليها في مواقع مختلفة من المدينة⁽³⁾.

1) https://www.temehu.com/cites_Sites/museum-of-sabratha.htm

2) وزارة السياحة والصناعات التقليدية. ليبيا

3) أطلس المواقع التاريخية والسياحية في العالم aathaar.net

تطور أسلوب الكنائس بمدينة صبراته

لقد اكتشف العديد من الآثار المسيحية المبكرة بمدينة صبراته، ويعتقد إن القدر الأكبر مازال مدفوناً تحت الأرض، ومن أهم المباني التي تعود للعهد المسيحي المبكر في الوقت الحاضر في هذه المدينة هي: ديماس الدفن (كاتا كومبس)، كنيسة المسرح كنيسة البازيليك.

أ- ديماس الدفن صبراته :

اكتشف هذا الديماس (الكاتاكومبس وهو عبارة عن طرق طويلة تحت الأرض) عن طريق الصدفة عام 1942 م، أثناء حفر قناة للمجارى من قبل الجيش الانجليزي الذي كان يحتل المنطقة، وقد تم العثور على جزء من هذا الديماس على بعد 200 متر من البحر.

يتكون في وقتنا الحاضر من ممرين احدهما يتجه من الغرب إلى الشرق والآخر يتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، حيث تنتمي غرف الدفن في هذا الديماس إلى النوع المعروف باسم المدافن ألقبويه، وتزدان بعض هذه المدافن برسومات جداريه جميلة، ويتم الدفن بوضع التوابيت الحجرية المغطاة بألواح حجرية ورخامية على أرضياتها مباشرة، كما عثر على إطلال أربع كنائس بالمنطقة وهذا دليل على تزايد المسيحيين في مدينة صبراته⁽¹⁾.

ب- كنيسة المسرح :

تقع هاتان الكنستان بالقرب من حمامات المسرح بمدينة صبراته، ويبدو إن الاختصاصات الدينية لهاتين الكنستين واحدة، ويعتقد إن بداية تشييدهما كان في أواخر القرن الرابع الميلادي.

كنيسة البازيليك:

لقد حلت هذه الكنيسة محل البازيليك الرومانية في حدود عام 450 م، وقد انكمش عرض هذه الكنيسة عن العرض السابق للبازيليك، وفي نفس الوقت اتخذت نفس طراز البازيليك الرومانية، حيث أصبحت تتكون من صحن في الوسط وجناحين وحنية بالجدار الغربي.

(1) الدو نيسوري ، ديماس الدفن في صبراته، مجلد ليبيا القديمة، العدد 109 ، مصلحة الآثار، طرابلس، 1973، 1972 م، ص 9 .

وقد أقيم مذبح من الخشب في منطقة قريبة من الزاوية الشمالية الغربية للكنيسة، ولكن بقاءه الحالية تدل على انه استبدل بالرخام في فترة لاحقة، وقد تم الاستغناء عن حوض التعميد السابق بإقامة معمودية في منطقة قريبة من الزاوية الشمالية الغربية للكنيسة⁽¹⁾.

الأسلوب التعبيري في بازيليكاستنانيا

ظهرت بعض المعالم المسيحية المبكرة التي شيدت في ليبيا من دور عبادة وكنائس في الفترة ما بين (300_ 565 م)، وقد توقفت هذه المنشآت عن أداء دورها المسيحي بمجرد وصول الطلائع الأولى التي نشرت الدين الإسلامي في ربوع البلاد في عام 642 م، وسرعان ما بدأ يسهم في بناء الحضارة العربية الإسلامية بأكثر نصيب في جميع المجالات.

بعد أن أعاد البيزنطيون سيطرتهم على البلاد بعد طرد الوندال عام "534 م" في عهد الإمبراطور جستنيان (527_ 534م) بدأ في منطقة شمال أفريقيا عهد قصير من الازدهار، حيث تم تحويل معظم مباني البازيليكات الرومانية إلى كنائس، بالإضافة إلى تشيد كنائس جديدة خاصة في المدن الخمس والمدن الثلاث.

ومن ابرز النماذج التي تمثل العمارة في هذه الفترة كنستان هما كنيسة قصر ليبيا بمنطقة المدن الخمس (شحات)، وكنيسة جستنيان بمنطقة المدن الثلاث (صبراتة)⁽²⁾.

كنيسة جستنيان :

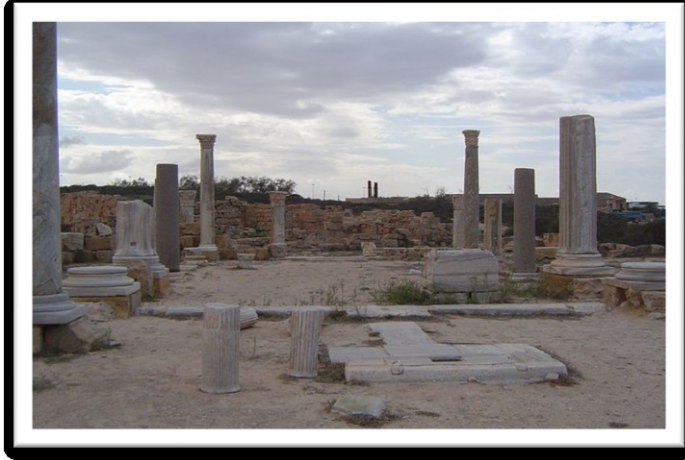
كنيسة جستنيان البيزنطية وتعرف باسم "بازيليكاستنانيا"؛ معلم من معالم الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا منذ القرن الرابع. وتعتبر بقايا كنيسة جستنيان الأثرية من المعالم التاريخية المهمة بمدينة صبراتة، ومنطقة شمال إفريقيا بوجه عام، وذلك لاحتوائها على عدد من الفسيقساء الملونة التي لازالت تحافظ شكلها ورسوماتها الأصلية، بالرغم من مرور العديد من العصور على تشيدها بأمر من الإمبراطور جستنيان.

لذا يزور العديد من السياح الكنيسة، لمشاهدة تلك اللوحات بالإضافة إلى الأعمدة الرخامية العريقة .

(1) معالم من الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا Historylibyawordpress.com

(2) Historylibyawordpress.com

فقد أشاد المؤرخ البيزنطي " بروكوبيوس " (القرن السادس الميلادي) بضخامة هذه الكنيسة، ولكن عظمه البناء لم يبقى منه سوى الأجزاء السفلية من البناء كما بشكل (3). ومن ابرز ملامح هذه الكنيسة في وقتنا الحاضر هو الفسيفساء التي كانت تزين صحن الكنيسة الأوسط والجناحين، وهي الآن معروضة بمتحف مدينة صبراته على هيئة نموذج لهذه الكنيسة⁽¹⁾.



شكل (3) الأجزاء السفلية لكنيسة جستنيان البيزنطية⁽²⁾

من ابرز معروضات المتحف، لوحة فسيفسائية ضخمة بالقاعة المقابلة للمدخل الرئيسي، التي كانت تزين أرضية صحن كنيسة جستنيان 527_565 م" كما في شكل (4)، المشيدة على أنقاض بازيليك " أوغسطين" وتمثل شجرة عنب محملة بالثمار وتنتشر على أغصانها أنواع كثيرة من الطيور، وطائر العنقاء التراثي والطاووس، كما علق على جدران الصالة ألواح فسيفساء أرضية أجنحة الكنيسة والهيكل، والمزينة برسوم وأشكال هندسية، بالإضافة إلى حاجز الهيكل وعمودان من وعاء القربان، وقمة المذبح الرخامي للكنيسة.

1) محمد على عيسى، مدينة صبراته منذ الاستيطان الفينيقي حتى الوقت الحاضر، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1976 م، ص 88.

2) <https://vici.org/vici/18067> Basilica of Justinian,sabratha-vici.org /



شكل (4) قاعة المدخل الرئيسي للكنيسة داخل متحف صبراتة

وجدت أغلب الفسيفساء في الرواق الأوسط والساحة المقدسة وبعض الحجرات الجانبية ولم يلاحظ وجود فسيفساء تزين الجدران والقباب، أن أقدم الفسيفساء ترجع للقرن الخامس ميلادي وانتشرت بشكل كبير، وأصبحت سمة في كل كنيسة في عهد جستينيان، ولم يقتصر الزخرف بالفسيفساء عن الكنائس والأماكن المقدسة بل وجدت في أرضيات المباني بالمدن أيضا.

ويلاحظ إن الفسيفساء التي كانت في الصحن تمثل رسما رمزيا يبدأ من بداية صحن الكنيسة وحتى نهايته، لفروع متشابكة تتخللها عناقيد العنب، إلى جانب وجود عدد كبير من الطيور من بينها طائر "الفونيكس" وهو رمز من شعارات الديانة المسيحية.

كما وجدت نماذج من الفسيفساء المنفذة بالأبيض والأسود بالعديد من المواقع الأثرية في صبراتة والتي ترجع إلى القرن الثاني الميلادي⁽¹⁾، وهي تخلو من أي موضوعات وتقتصر على الوحدات الهندسية، لتكوين أشكال متنوعة فيما بينها من تصاميم والعلاقات المختلفة، وهي تماثل تلك الموجودة "أوستيا انتيكا" في إيطاليا، ومن المواقع الأثرية باليونان، وهذا راجع لتوفر الخامات المتاحة استخدامها⁽²⁾، حيث إن هذا الأسلوب كان منتشرًا في التصوير الحائطي وفسيفساء الأرضيات في العالم الكلاسيكي.

(1) أنور أبو زعينين، فن الفسيفساء في ليبيا، مرجع سابق، 2006، ص 47.

(2) المرجع السابق، ص 47.

فقرص القطع الفسيقسائية في الوحدات التشكيلية تؤدي إلى جانب وظيفتها في البناء التشكيلي دوراً جمالياً، يرتبط بوضع عناصرها على مسطح العمل الفني وعلاقتها المتبادلة بما يجاورها من عناصر تحقق مختلف القيم الفنية (قيم الوحدة، التنوع، الإيقاع، الاتزان، التناسب، الحركة، التوافق التباين والتماثل) التي تنتج عن تنظيم العلاقات بين المفردات على مسطح العمل الفن⁽¹⁾، وهي تظهر متضادة ومتحدة في كل ممارسات الفن، وتمثل الهدف الجمالي الرئيسي الذي يحاول الفنان في جميع ألامنه تحقيقه بصورة تعكس الغرض الجمالي والوظيفي من العمل، ودفعه لإبراز أعماله بنوع من التميز والإبداع .

فالعمل الفني يتعد أو يقترب من الكمال الفني أو الجمال بمقدار ما ترتبط أجزاءه بمثل هذا الترابط⁽²⁾، وبالنظر إلى تلك القيم لابد من اعتبارها قيماً متداخلة ومتراطة فهي تعمل معاً دون انفصال.

ثالثاً: الرؤى البنائية والتعبيرية لنماذج من الوحدات الفسيقسائية للوحدات الفسيقسائية بازيليكاستنيان الأثرية :

لاستخلاص الجمالية في البنائية الفنية لفسيقسائي بازيليكاستنيان أضافت الباحثة هذا المحور الذي اختارت فيها لوحات نماذج الدراسة، وتحليلها لما اتصفت به هذه الوحدات من جماليات في التكوين والأسلوب والتعبير.

(1) إسماعيل شوقي إسماعيل، الفن والتصميم، دار زهراء الشرق، القاهرة، 2001، ص 224.

(2) إسماعيل شوقي إسماعيل، الفن والتصميم، مرجع سابق، ص 224 .

النموذج الأول: فسيفساء أرضية صحن كنيسة جستنيان



فسيفساء أرضية صحن كنيسة جستنيان (1)

تعد من أجمل قطع الفسيفساء النادرة في العالم، تتسم الوحدات الفسيفسائية التي كانت في صحن الكنيسة رسوما رمزية تحاكي حقبة تاريخية تمثل أشكال حيوانات ومخلوقات أسطورية، داخل إطار من الزخارف .

وهي قصة رمزية لرحلة الروح إلى الجنة، وتضم شجرة يسكنها مجموعة متنوعة من الطيور، والتي تمثل أروحا تبث عن أرواح، وطيور تأكل العنب من الشجرة. ومن الطيور المميزة طائر الطاووس، يمثل ذروة تطور الروح عند ما تصل إلى الجنة.

واللوحة الفسيفسائية عبارة عن وحدات أرضية من الفسيفساء الدقيقة مستطيلة الشكل من بداية صحن الكنيسة وحتى نهايته، نفذت بقطع من الحصى الأبيض والأزرق والبني والعسلي الملون ، ذات فروع متشابكة تتخللها عنقايد العنب، إلى جانب وجود عدد كبير من الطيور، كما نرى عدد من الطاووس وسمانه داخل القفص، إضافة إلى مجموعة أوراق بأحجام وحركات مختلفة، يمينا ويسار من أعلى وأسفل اللوحة.

يكمن البعد التعبيري في جمالية التنوع بين المساحات اللونية للتصميم الواحد وتوزيعها بشكل مقصود ومحكم من خلال تنفيذ تصميم تداخل الفروع والأوراق وعنقايد العنب في حركة

بصرية إدراكية، حيث تنوع في أحجام قطعها ما بين الصغير والدقيق جدا يعطى الإحساس بالعمق، إلى جانب التنوع اللوني بين تدرج الأزرق والأخضر والبني والعسلي بتناغم وثناء لوني.



الجزء العلوي من فسيفساء أرضية كنيسة جستنانيا جزء تفصيلي يسار فسيفساء أرضية جستنانيا اتسمت كافة أجزاء الفسيفساء بطابع شمولي من حيث الرؤية والأسلوب الرمزي المتبع في معالجة عناصر التصميم المتمثلة في تمازج زخارفها النباتية والطيور.

نشاهد في الجزء العلوي اللوحة الفسيفسائية تكوين لطاوس ثابت فارد اجنحته بمبدأ السيادة في التصميم، اوحت بشموخه، وطاوس اخر يسار اللوحة في حركة تعبيرية بجناحين مضمومين داخل تصميم غنى بالتناغمات المتنوعة من حيث استخدام الخطي المتشابه لتفصيل الاجنحة، وحركة الاوراق، وتدلي العناقيد، وتوزيع الالوان.

مؤكد على البعد التعبيري الجمالي من خلال التأثيرات اللونية المتنوعة التي جمعت بين تباث الطاوس والتداخل الخطي لتأثيرات حركة اجنحته وباقي العناصر النباتية وتوزيعها في تكرار

جمالي على مساحات متعددة لسطح الارضية، في انسجام وتناغم واثراء لسطح اللوحة الفسيفسائية.

النموذج الثاني: لوحات لفسيفساء ورقية



لوحات أرضية جستنيان لفسيفساء ورقية⁽¹⁾

لوحات فسيفسائية ورقية نزعت من أرضية كنيسة جستنيان القديمة، للحفاظ عليها من عوامل التعرية والزمن وعلقت على جدران متحف صبراتة.

تمثل الجمالية التعبيرية في اللوحات الفسيفساء الورقية في تصميم وحداتها بقدر من التجرد وتناغم لوني مبسط، متجسدة بطابع التماثل في التكوين. متفاعل فيها الجانب التشكيلي والجانب التعبيري محقق رؤية جمالية بين أسلوب فاني تلك الحقبة والتقنية الفنية في التنفيذ، وما تضيفه من قيم جمالية واثراء تعبيرى لتكوينات الفسيفساء .

<https://vici.org/vici/18067> Basilica of Justinian,sabratha-vici.org (1

النموذج الثالث: لوحة لبلاطة هندسية



الوحدات الهندسية على جدران متحف صبراتة⁽¹⁾

تقتصر هذه الفسيفساء في تكوينها على الوحدات الهندسية لصياغة تناغم متنوع فيما بينها من تصاميم وعلاقات بإيقاع متناسق، وتعدد مستويات الخطوط، وقوة التداخل الخطي في تبادل وتوافق للوحدات والعناصر المكونة لها.

فقد برع فنانون تلك الحقبة في استخدام التباين اللوني بين الأبيض والأسود إلى جانب تدرج اللون البني، والتنوع في إحجام الحصى بتجسيدها على شكل تصاميم ذات التكرار في خطوطها راسيا وأفقيا، محدث نوع من تكرر وحداتها.

تكمن التعبيرات الفنية الغنية بجماليات التكوين الفني للوحدات الفسيفسائية من خلال ترتيب وتنظيم المساحات بشكل جمالي محكم، بتلاقي الخطوط الراسية والأفقية، وتباين لوني مما يعطى إحساس بالتوازن والثبات في اللوحة.

<https://vici.org/vici/18067> Basilica of Justinian,sabratha-vici.org (1

النموذج الرابع: بلاطات فسيفساء نباتية



بلاطات نباتية من كنيسة جستنيان⁽¹⁾

إن أسلوب الفسيفساء المنفذة بالأبيض والأسود منتشرا في التصوير الحائطي وتصوير فسيفساء الأرضيات، وهي تماثل تلك الموجودة في المواقع الأثرية في إيطاليا واليونان.

التكوين العام للقطع الفسيفسائية يكمن في تصاميم زخارف نباتية من الحصى الصغيرة بتناغم متمائل بين أجزائها، وفي انسجام وتناغم حركة أوراقها الدائرية في المنتصف وداخل إطار مزين بأزهار وخطوط مستقيمة ودائرية.

وقد أبدع الفنانون في أخراج هذه اللوحات متمكنين من توظيف الألوان المناسبة ضمن سلسلة متدرجة من البني الفاتح إلى البرتقالي، فوق عمق باللون الأسود، أدى إلى نجاح أسلوب

<https://vici.org/vici/18067> Basilica of Justinian, sabratha-vici.org (1

أظهار الأوراق والأزهار في المنتصف والزوايا، وإتباع التماثل بين أجزاء عناصرها، واندماج الرسومات ضمن اطر هندسية ونباتية بتداخل نوعي جذاب.

تكمن التعبيرات الفنية الغنية بجماليات التكوين الفني للوحدات الفسيفسائية المتمثل في تصميم عناصرها النباتية، من حيث طابع التماثل في التكوين والتنوع في المظهر الخارجي للبلاط، من حيث التصميم وتنوع المادة الخام والثراء اللوني محققه في ذلك سمه التوازن والتماثل.

النتائج والتوصيات:

خلصت الدراسة إلى النتائج التالية :

_ تنوع التكوين في وحدات فسيفساء كنيسة جستنيان ساهم في أبرزاز جماليات التعبير الفني المتمثلة في قيم التوازن، والتناسب، والوحدة، والإيقاع والتنوع، والتوافق اللوني والتماثل بين أجزاء عناصرها.

_ ظهور القيم الجمالية التعبيرية ارتبط إلى حد كبير بموضوعات الرسم والتصوير الموجودة في المواقع الأثرية في ايطاليا واليونان.

_ الارتباط والتوافق التقني والجمالي التام قدم وحدات فسيفسائية لونية كلاسيكية لها رؤية مرتبطة بدلالات رمزية ثقافية محددة للحضارة البيزنطية الظاهرة في فسيفساء أرضية كنيسة جستنيان.

_ تحقق الانسجام التشكيلي الجمالي في ملامس لوحات الفسيفساء لتناسب حجم ونوع الخامة المستخدمة في تكوينها مع الغرض والتصميم من خلال شكل العناصر، التباين اللون، العمق والترابط في التنفيذ.

_ تم استخدام بعض التقنيات المختلفة في فن الفسيفساء والتصوير محقق صيغ جمالية، حيث يتفاعل فيها الجانب التشكيلي والجانب التعبيري للتكوينات الفسيفسائية في صورة واحدة .

_ ترتيب العناصر الهندسية بأسلوب تدريجي يرتبط فيها أجزائها على مستوى التابع الإيقاعي في الوحدات التصميمية، أدى إلى بروز أساس البعد الجمالي فيها، من خلال الخصائص الفنية كالتناغم اللوني والخطى إلى جانب حسية الملمس والتناسب والإيقاع في الوحدات الفسيفسائية.

_ تمكنت التعبيرات الفنية الغنية بجماليات التكوين الفني للوحدات الفسيفسائية من التأكيد على التعبير عن شتى المواضيع والحالات، وتطور عناصرها المستخدمة من رؤية سطحية إلى جمالية مجردة بأفاق جديدة مستمدة عناصر تكوينها من البيئة الاجتماعية المحيطة.

_ اتسمت الوحدات الفسيفسائية بطابع شمولي من حيث الرؤية والأسلوب الرمزي المتبع في معالجة عناصر التصميم، المتمثلة في تمازج زخارفها النباتية والطيور بعناية فنية دقيقة في التنفيذ وبأساليب إبداعية مبتكرة وضمن لوحة فسيفسائية واحدة.

_ ظهور الإطار ذات الأشكال والخطوط المتحركة التي كان يستلهمها الفنانون من اللوحات الجدارية المعتمدة على النماذج التصويرية، واندماج رسوماتها ضمن اطر نباتية وهندسية متعددة الألوان .

التوصيات

1. الحث والتشجيع على الدراسات العلمية والفنية المتخصصة في مجال ترميم الفسيفساء، والاهتمام بها والربط بين الدراسات الأثرية والفنية والتقنية بالمواقع الأثرية.
2. تطوير متاحف الأثرية في ليبيا طبقا للمواصفات العالمية، للحفاظ على الممتلكات الأثرية والتاريخية بها، وتوفير الجو والبيئة المناسبة وذلك على حسب المعروضات المقترحة لحيز المتحف.
3. وضع برنامج خاص للصيانة الدورية للمواقع الأثرية وحمايتها، إلى جانب إنشاء معامل الترميم طبقا للأسس والمعايير العلمية .

قائمة المصادر والمراجع

_ أنور أبو زعينين، فن الفسيفساء في ليبيا، قصائد من حجر، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، 2006 .

_ إسماعيل شوقي إسماعيل، الفن والتصميم، دار زهراء الشرق، القاهرة، 2001.

_ محمد عيسى، الحياة العامة في المدن الليبية القديمة أثناء الاستعمار الروماني من خلال بعض نماذج الفسيفساء، مجلة آثار العرب، العدد السابع والثامن، 1995 م .

_ محمد عيسى، معالم من الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا منذ بداية القرن الرابع وحتى منتصف القرن السادس الميلادي، مجلة أثار العرب - العدد السادس، 1993. _ محمد علي عيسى، مدينة صبراته منذ الاستيطان الفينيقي حتى الوقت الحاضر، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1976 م .

_ محمود عبد العزيز النمى، وآخرون، دليل متحف السراي الحمراء بطرابلس، الإدارة العامة للبحوث والمحفوظات التاريخية بمصلحة الآثار، 1977 م.

_ الدو نيستوري، ديماس الدفن في صبراته، مجلد ليبيا القديمة، العدد 10.9، مصلحة الآثار طرابلس، 1972، 1973 م .

المواقع الالكترونية

_ وزارة السياحة والصناعات التقليدية. ليبيا.

_ معالم من الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا Historylibyawordpress.com

<https://www.temehu.com/citesites/museum-of-sabratha.htm>

<https://vici.org/vici/18067> Basilica of Justinian / sabratha-vici.org

_ Athaar.net أطلس المواقع التاريخية والسياحية في العالم